المكتبات في الأندلس في العصر العباسي

أحمد رضا – الباحث بمرحلة الدكتوراه

جامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية، حيدر آباد

إيميل- iahmadraza11@gmail.com

المقدمة

تعد المكتبة من المعالم الرئيسية الدالة على ثقافة الشعوب والأمم وهي من أهم دعائم الحضارة والثقافة تقوم بحفظ وصيانة كنوز المعرفة وتنظيمها وإتاحتها للجميع، كما أنها تعطي صورة صادقة لمدى اهتمام الأمم والشعوب بالفكر والعلم، مما يجعلها من أهم مقاييس التقدم والرقي. وقد تطورت المكتبات وتنوعت على مدار الأيام والعصور، بفضل تطور وسائل حفظ وتثبيت النصوص وتبادلها، وقد ازدهرت في بعض الفترات واندثرت في فترات أخرى، ولم تقتصر الآن هذه المكتبات على الكتب الورقية بل أصبحت هناك الخدمات الإلكترونية التي يمكن من خلالها الحصول على المعلومات في آن واحد تحت تنظيم من مسؤولي المكتبة. وفي هذه المقالة الوجيزة اتناول المكتبات -بأنواعها المختلفة - التي وجدت في البلدان المجاورة للعراق مثل مصر والشام في العصر العباسي وخاصة في الأندلس.

الكمات المفتاحية: المكتبة، الكنز، الكتاب، العلم، الثقافة، العصر العباسي، الأندلس.

نظرة عامة حول المكتبات في الحضارة الإسلامية

في صدر الإسلام، كان بيت الرسول صلى الله عليه وسلم أول مكتبة تضم أول كتاب (القرآن الكريم) وشجع الرسول صلى الله عليه وسلم الكتابة على نطاق أوسع. من أشهر هؤلاء الكتاب من المهاجرين والأنصار الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وثابت بن قيس، وأرقم بن أبي، وشرحبيل بن حسنة، عبد الله بن رواحة، عمرو بن العاص ...وغيرهم.

ثم بدأت حركة التأليف منذ منتصف القرن الأول الهجري، وشهد القرن الثاني ظهور الكتب والدواوين مما أسهم في تطور حركة تدوين التراث والتاريخ. وبعد إقامة صناعة الورق في بغداد ابتداء من عصر الرشيد وظهور جماعة الوراقين، عرف العرب نقلة نوعية في مجال التدوين والكتابة وظهور المكتبات.

يعد العباسيون هم أول من أنشأ المكتبات بالمعنى الحقيقي حيث كان كثيرا من خلفاء الدولة العباسية شغوفين بالدراسة والعلم، وكان لهم اهتمامات كبيرة بجميع المؤلفات القديمة والمعاصرة

وترجمتها، وكان أبى جعفر المنصور هو أول من توسع في نشر الثقافة الإغريقية. وقد كان من الطبيعي أن ينبع عن كل خطوة من خطوات هذه العملية جمع الكتب والمؤلفات وتكوين المكتبات صغيرة وكبيرة.

أنواع المكتبات

وقد عرفت الحضارة الإسلامية أنواعاً متعددة من المكتبات ولقد انتشرت هذه المكتبات في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، فوجدت المكتبات في قصور الخلفاء وفي المدارس والكتاتيب والجوامع، وكما وجدت في عواصم الإمارات وجدت كذلك في القرى النائية، والأماكن البعيدة منها: **المكتبات الأكاديمية**، وهي من أشهر المكتبات في الحضارة الإسلامية؛ ومن أهمها مكتبة بغداد **"بيت الحكمة"** أسسها هارون الرشيد[1] و"**مكتبة دار الحكمة "**في القاهرة الفاطمية أسسها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله عام 1004م/395هـ، وفرشت هذه المكتبة بأنواع السجاد الفاخر وعلق على جميع أبوابها وممراتها الستائر وجعل فيها الخدم. وتذكر المصادر أنها حوت 1,600,000 مجلد ضمت (6500) مخطوطة في الرياضيات و (18,000) مخطوطة في الفلسفة وكان الدخول إليها والاستنساخ والترجمة مجانا [2]. وذكر المقريزي أنه كان في قصور الفاطميين أربعون خزانة، منها خزانة تحتوي على 80,000 مجلد في العلوم القديمة[3] .

ثم **المكتبات الخاصة** وقد انتشر هذا النوع من المكتبات في جميع أنحاء العالم الإسلامي بشكل واسع وجيد ومن أمثلتها **مكتبة الخليفة المستنصر**[4]، و**مكتبة الفتح بن خاقان**، الذي كان يمشي والكتاب في كمه ينظر فيه [5]. ومكتبة ابن العميد وزير آل بويه الشهير، وقد ذكر ابن مسكويه المؤرخ الشهير أنه كان خازنا لمكتبة ابن العميد فذكر واقعة سرقة تعرّض لها بيته، وكانت فيه مكتبته، وقد حزن ابن العميد أكثر الحزن على مكتبته، ظنا منه أنها سرقت مع باقي المسروقات [6]. وكانت مكتبة نوح بن نصر الساماني كما يقول ابن خلدون عديمة المثل فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلا عن معرفته[7].

وجدت كذلك **المكتبات العامة** التي كان من أشهرها مكتبة قرطبة التي أسسها الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله سنة (350هـ/961م)، أتناولها فيما بعد.

---

[1] معروف الناجي، إصالة الحضارة العربية، بيروت 1969، ص: 429.
[2] منصور سرحان، المكتبات في العصور الإسلامية، ط 1، ص: 60، دار مخراوي، البحرين 1967م. محمد حمادة، المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها، ط 1، ص: 158، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1886.
[3] خطط المقريزي، ج 1، ص: 407، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج 3، ص: 344.
[4] ابن كثير، البداية والنهاية، 13/186.
[5] الذهبي، تاريخ الإسلام، 18/375.
[6] ابن مسكويه، تجارب الأمم، 6/286.
[7] حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج 3، ص: 342. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1، ص: 152-153.

وأيضا مكتبة بني عمار في الشام، وكان لهم وكلاء يجوبون العالم بحثا عن الروائع لضمها إلى المكتبة، وكان بها خمسة وثمانون ناسخا، يشتغلون بها ليل نهار في نسخ الكتب[8].

كذلك أنشأ الخلفاء والولاة والعلماء **مكتبات المدارس و المساجد** تلك المدارس التي انتشرت في كل بقاع العالم الإسلامي، وقد ألحقت بمعظم المدارس مكتبات "خزائن كتب لتكون مرجعا لطلبة العلم ليقفوا على أخر ما صنف في فنون العلوم والآداب حتى عصرهم، وتسابق السلاطين والعلماء بل والمجتمع المدني من كبار التجار و المحسنين بل وحتى المحسنات من الأميرات والعالمات وغيرهن في إنشاء هذه المؤسسات، فنور الدين محمود بنى مدرسة في دمشق وألحق بها مكتبة، وكذلك فعل صلاح الدين، أما القاضي الفاضل وزير صلاح الدين فقد أسس مدرسة في القاهرة سماها الفاضلية، وأودع فيها حوالي مئتي ألف مجلد مما أخذه من خزائن الفاطميين.

واشتهر نوع آخر من أنواع المكتبات في الحضارة الإسلامية، تلك المكتبات التي أنشئت كملاحق في المساجد والجوامع ويعتبر هذا النوع من المكتبات الأول في الإسلام؛ حيث نشأت المكتبات في الإسلام مع نشأة المساجد وقبل إنشاء المدارس بقرنين على الأقل، ومن أمثلتها **مكتبة الجامع الأزهر، ومكتبة الجامع الكبير في القيروان**[9]. بل اشتهر المسجد النبوي بمكتبة عامة كبيرة كانت موقوفة على طلبة العلم من المجاورين، وكانت الفاجعة قد حلت بها سنة 886هـ، حين احترقت بسبب في نادرة من النوادر الطبيعية الغريبة [10]. وكذلك اشتهر الجامع الأموي بدمشق بخزانة كتبه الفريدة بل بعدة خزائن كتب "مكتبات"، كانت موقوفة على كل من يريد المطالعة والتعلم[11] .

المكتبات في الأندلس

لم يقتصر الاهتمام بالمكتبات على البلاد الإسلامية بالشرق بل اهتم الخلفاء كذلك بإنشاء المكتبات في بلاد الأندلس وكانت المكتبات الأندلسية توجد في القصور الملكية أو البيوت الخاصة أو ملحقة بالجوامع والمساجد والمدارس ومن ثم يمكن تقسيم تلك المكتبات إلى فئتين، الأولى منها مكتبات عامة: يتاح للجميع استخدامها والاستفادة منها مثل مكتبات الوقف ومكتبات المساجد والمدارس. أما الثانية فهي مكتبات خاصة: يعني بجمعها أفراد من الناس رغبة منهم في العلم مثل المكتبات الخلافية لدى الخلفاء والأمراء وكذلك مكتبات الأغنياء والعظماء. وفي السطور التالية أذكر بعض النماذج على سبيل المثال.

---

[8] د. راغب السرجاني، ماذا قدم المسلمون للعالم، 2/25، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2009.
[9] المصدر السابق.
[10] ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 9/515
[11] العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص: 61.

مكتبات الخلفاء

أراد الأمويون أن ينافسوا العباسيين في المشرق، فانتهجوا نهجهم واهتموا بنشر العلوم والثقافة وأسسوا مكتبات قيمة عديدة مثل مكتبة الأمير عبد الرحمن الأوسط[12] مكتبة الأمير محمد بن عبد الرحمن مكتبة الخليفة الناصر مكتبة المنصور بني عامر ومكتبة الخليفة الحكم مستنصر وصارت هذه المكتبة من أعظم مكتبة في العصر الوسيط في العالم[13]. هذه فقط بعض الأسماء من الكثير، وللاطلاع على المزيد راجع كتاب" المكتبات في الأندلس" للدكتور رضا سعيد على مقبل من الصفحة 92- 100.

المكتبات الخاصة

وهي التي أنشأها الأفراد لمصلحتهم وبأموالهم ووفقا لميولهم واتجاهاتهم العلمية وانتشر هذا النوع من المكتبات أيضا في الأندلس ومن أوائل المكتبات الشخصية مكتبة الفقيه عبد المالك بن حبيب السلمي، ومكتبه محمد بن حزم، ومكتبة ابن كيسان، ومكتبة ابن الفوضى [14].وأشهرها مكتبة القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن فطيس، قال عنه ابن بشكويه "أنه كان له ستة وراقين ينسخون دائما، وبلغ من كثرة كتبه أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتبه لمدة عام كامل في مسجده، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية [15].

المكتبات العامة

حظي الأندلس في مختلف عصوره بكثير من المكتبات العامة والتي ساهمت في نشر العلوم والثقافة وجعلها قطبا يرحل إليها الناس من جميع أقطاب الأرض. تقول المستشرقة هونكة: "أن حكام الأندلس أنشأوا في كل حي دارا للكتب وزودوها بمئات الألوف من الكتب التي جعلوها في متناول الجميع " [16]. وتجمع المصادر على أن عصر الخلافة (348هـ- 402هـ) هو أكثر العصور التي وجدت به مكتبات عامة، فقد وجد

---

[12] د. رضا سعيد علي مقبل، المكتبات في الأندلس، ص: 92. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج 2، ص: 45.

[13] محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص: 504، جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج 1، ص: 98.

[14] د. رضا سعيد علي مقبل، المكتبات في الأندلس، ص: 102-114.

[15] د. حامد شافعي دياب، الكتب والمكتبات في الأندلس، ص: 102، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

[16] هونتكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص 500، و د. رضا سعيد علي مقبل، المكتبات في الأندلس، ص: 115.

في هذا القرن الرابع الهجري في الأندلس الإسلامية سبعون مكتبة عامة [17]. والمكتبات العامة تشمل مكتبات الأوقاف ومكتبات المساجد والجوامع وغيرها.

وكان أهم تلك المكتبات وأشهرها مكتبة قرطبة التي أسسها الخليفة الأموي الحكم المستنصر ب الله سنة (350هـ/961م). هذه المكتبة عين لها موظفين للعناية بشؤونها، وجمع فيها النساخ، وعين لها عددًا كبيرًا من المجلِّدين، وقد ظلت محط أنظار العلماء وطلاب العلم في الأندلس، وقد وفد إليها الأوربيون للنهل من معينها، والتزود من علومها، وقد كانت عدة الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعا وأربعين فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط[18] . وكانت تضم بين خزائنها أربعمائة ألف مجلد في وقت لم تعرف فيه الطباعة كما كانت تحتوي على أربعة وأربعين سجلا، كل منها يقع في خمسين ورقة [19].

لقد سعت الغالبية العظمى من مسلمي الأندلس إلى مساندة ودعم مكتبات المساجد. وقد ذكر المؤرخ الإسباني خوليان ريبيرا أن ابن لب المالقي الذي عاش مدة طويلة في غرناطة أوصى بجزء كبير من مكتبته الخاصة إلى مكتبة الجامع الكبير بمدينة مالقة مسقط رأسه، كما قام العالم ابن مروان الباجي بإهداء كتبه كلها إلى الجامع الكبير بمدينة إشبيلية ولضمان المحافظة على كتبه فقد عهد بها إلى خطيب المسجد الشيخ عبد الرحمن اللخمي، الذي يبدو أنه كان موكلا بإدارة شؤون مكتبة الجامع وفاقت مكتبات الجوامع في الأندلس نظيرتها في المشرق الإسلامي، ويعد المسجد الكبير في قرطبة واحدا من أكبر الجوامع وأعظمها، وقد احتوى هذا المسجد الشهير الذي أنشأه الخليفة الأموي عبد الرحمن الداخل سنة (170هـ / 786م) على مجموعة كبيرة من الكتب والمصاحف والتي دمر معظمها إبان اجتياح قوات الملك فرديناند الثالث سنة (634هـ/1236م)، وقد أشار المؤرخ المقري إلى تلك الواقعة، ذاكرا بأنه كان من بين المصاحف التي أحرقت على يد القوات الغازية المصحف الذي خطه الخليفة عثمان بن عفان[20].

خلاصة القول

المكتبة هي خزائن دولة تدل على ثقافتها ورقيها وشغفها بالعلوم والفنون، وتزامن تطورها بتطور الكتابة وتدوين الكتب. ونجد المكتبات تحظى باهتمام الخلفاء والأمراء والعامة من الناس في العصور الإسلامية الأولى خاصة في الدولة العباسية وازداد عددها ارتفاعا يوما فيوما. ولم تكن الأندلس منعزلة عن هذه التطورات، فاهتم خلفاءها وأمراءها وشعبها اهتماما بالغا بالعناية بالكتب من حيث الكتابة والنقل

---

[17] هيسيل، تاريخ المكتبات، ص: 54، محمد فريد وجدي، دائرة المعارف القرن العشرين، ط 3، بيروت: دار المعرفة، 1997م.

[18] ابن الابار، التكملة لكتاب الصلة، 1/190.

[19] حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج 3، ص: 345.

[20] المقري، نفح الطيب، ج 1، ص: 398، د. حامد شافعي دياب، الكتب والمكتبات في الأندلس، ص :100.

والترجمة والنسخ وبناء المكتبات، حيث صارت الأندلس مرجعا للكثير من الورى ومركز النور والثقافة ومنبع العلوم والفنون ينهل من منهلها عدد من الناس لا يحصى ولا يعد.

Ahmad Raza

PhD. Scholar, Department of Arab and Asian Studies

The English and Foreign Languages University, Hyderabad, T. S

Email – iahamdraza11@gmail.com

Cell: +91-7503344730

المراجع والمصادر

1. حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام - ج 2، دار الجيل، بيروت، 1996.

2. معروف الناجي - أصالة الحضارة العربية - بيروت، 1969.

3. منصور سرحان - المكتبات في العصور الإسلامية - ط 1 دار مخراوى البحرين 1967م.

4. محمد حمادة - المكتبات في الإسلام، نشأتها وتطورها ومصائرها - ط 1مؤسسة الرسالة - بيروت - 1886م.

5. د. راغب السرجاني - ماذا قدم المسلمون للعالم - مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع

والترجمة القاهرة 2009.

6. د. رضا سعيد علي مقبل - المكتبات في الأندلس - مجلة المكتبات الآن يناير 2006

7 دكتور حامد شافعي دياب - الكتب والمكتبات في الأندلس - ص: 102، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة).